قرأت في العدد الماضي

القصص

بقلم صدقي اسماعيل

***

في العدد الماضي من مجلة « الاداب » رواية فرنسية ملخصة للدكتور سهيل ادريس ، وقصة قصيرة بعنوان « الربع الحلال » للسيد فاضل السباعي ، وثلاث قصص اخرى متشابهة في الصيغة الادبية هي « الشمس باردة في خط الاستواء » للسيد جان الكسان . و « النهر ميت » للسيد زكريا تامر و « الحزن في كل مكان » للسيد ياسين رفاعية .

وقد قدم الدكتور « سهيل ادريس » صفحات جميلة عن رواية « دريس » للكاتبة الفرنسية الشابة « جانين اوريانو » ، وعلى الرغم من انها صفحات ملخصة فان القارىء يتبين في عرضها بالعربية اسلوبا عذبا غنيا بالحياة ، وبراعة في انتزاع الصور الفنية وفي نقل الحوار الاساسي .

والدكتور سهيل ادريس يثير بتقديم هذه الرواية مشكلة هامة بالنسبة للقارىء العربي بصورة خاصة ، وللحقيقة بصورة عامة . فموضوع الرواية هو تفتح الوعي الانساني في نفس شاب جزائري نزح الى فرنسا طلبا الرزق فلم يجد الا التشرد والقلق والالم ، وقد مرت به احداث متلاحقة استمدت منها المؤلفة وقائع حية لصورها الادبية ، وجعلت هذا الشاب اقرب الى ابطال قصص المغامرات ، ولكن المحور الرئيسي بقي هذا الشعور الداخلي بالمأساة ، شعور يترعرع وينمو مع الحوادث ، الى ان يغدو تعبيرا عن « مأساة الانسان العربي في الجزائر » حين يبحث عن المعيشة والكرامة ..

اذا تركنا الناحية الفنية جانبا ، فاننا نقف في هذه الرواية امام قضية انسانية جديرة بالبحث ، يثيرها هذا التساؤل : اين هي حقيقة المأساة ؟ مأساة عربي الجزائر.. وهل استطاعت الكاتبة ان تصورها في قوة وامانة؟.

ان هذه الرواية في الواقع تعرض الحقيقة في غلاف ناعم من المشاعر الانسانية النبيلة ، نسج من المحبة والعطف والبراءة ، ولكنه غلاف فرنسي واضح يحمل لونا معينا دخيلا على الحقيقة ، تساق احداث الواقع من خلاله في توجيه شفاف يمثل وجهة نظر مايسمونه « الجانب الطيب » من الطرف الفرنسي في ثورة الجزائر وفي انسان الجزائر ، ولكنه بعيد كل البعد عن الحقيقة التي يمثلها الواقع العربي ..

فدريس شاب جزائري في الخامسة والعشرين ادركه اليأس في الجزائر فنزح الى فرنسا لكسب العيش ونفسه تفيض بالامل .. فهو « يحب » فرنسا ويعتبرها « بلده » ويفخر بانه يحسن التحدث بالفرنسية ويشعر بالتفوق على اقرانه لانه قضى خمسة اعوام في المدرسة الفرنسية الاسلامية ، و « يؤمن » بان فرنسا لن تخيب أمله .. الخ

ففرنسا ـ كما تريدها الكاتبة لبطلها العربي ـ هي الحقيقة والمستقبل !.

ولكنه في ازمة داخلية تزيدها الوقائع عنفا ، فهو يجد نفسه ابدا امام التشرد والجوع وبدلا من ان تعلمه التجارب شيئا من التمرد والشعور بالكرامة ويقظة الوجدان القومي ـ وهي الدعائم الانسانية للثورة التي قام بها شعبه في الجزائر ـ توفر له الكاتبة بواعث اخرى توقظ في نفسه حقيقة المأساة :

انه يتلقى اول درس من عانس فرنسية قتل ابن اختها في حرب الجزائر وكانت وصيته حب الجزائريين « انهم تعساء ويجب ان نساعدهم » . ويتعلم دريس شيئا عن المحبة الانسانية ! ...

وثمة صديق فرنسي قديم ـ جاك ـ يؤمن به دريس ويراه معبرا عن « افكاره هو بالذات » ، هذا الصديق يلقن دريس الشعور بعروبته :« ان شعورك بانك فرنسي يشبه الى حد شعور ابي بانه عربي حين يدخل مشتى من مشاتيكم ، فبأي حق نجذبكم لينا .. الخ » وجاك هذا يلعب في القصة دور الموجه « الثوري » لدريس « انعليك ان تنضم اليهم وتجمع صوتك الى اصواتهم لتطلبوا انقاذ الجزائر ... »

أي « عربي » عجيب هذا الذي تصوره الكاتبة ، لاتهزه ثورة شعبه البطولية ، ينتظر الايحاء من « فرنسا » !.. حتى عندما يلتفت الى الجزائر ، فانه لايجد اي حافز فابوه « لم يكن يؤمن بشيء ، كان قد فقد ايمانه مع تساقط المصائب عليه .. »

ويتعلم « دريس » انه انسان ذو كرامة من موعظة في الكنيسة ، وبدلا من ان تكون هذه اليقظة الانسانية ثمرة للتجربة الروحية العميقة التي يحرره بها فداء المسيح ، فان الكاتبة تعطي هذا التحرر مظهرا اخر .

« لم يعد يشعر وسط هؤلاء الراكعين انه « غريب » ، وانما كان يحس انه كبير حي ، يحبه الاله اكثر مما يحب الاخرين ، كما لو ان بشرته كانت بيضاء وشعره ناعما اشقر ، كما لو انه لم يكن واحدا آخر ..»

وبتعبير موجز كما لوانه فرنسي ...

ويقتل اخوه في الحرب فيغضب ، وبدلا من ان تكون هذه الحادثة شرارة حاسمة ، تطرح الكاتبة امامه مشكلة الثورة الجزائرية على نحو غريب :

« انهم يتقاتلون ولكنهم جميعا على ضلال . »

« ـ قتل في ظهره ، اليس كذلك ؟

« ـ اجل في ظهره ، ولكن ماذا تظن .. لقد قتل هو ايضا كثيرين في ظهورهم .. »

وتتكرر في القصة فكرة « المساواة » والتعادل بين الطرفين المتحاربين في الجزائر حتى لتبدو اقرب الى التوجيه السياسي ، وقد يجد الثوار ـ عند الكاتبة ـ مبررا للثورة . .انهم جائعون مضطهدون لايتمتعون بالحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون ؟ ولكن اذا شبعوا واعتبروا فرنسيين حقا ، هل يتوقفون عن الكفاح ضد الاحتلال ؟.. .

على هذا النحو تبدو ماساة الثورة الجزائرية والانسان العربي في الجزائر ، صورة زائفة عن الحقيقة ، على الرغم من المظهر الانساني الذي توشيه الكاتبة بالوان المشاعر « النبيلة » .. انها صورة تحمل من الملامح الفرنسية الرقيقة اللينة ، اكثر مما تحمل من ملامح الرجولة والعزيمة والجد في اولئك الناس البسطاء الذين يقفون في جراة وتصميم مع مصيرهم ، سواء فيهم المحاربون في الجبال ، او المكافحون في المدن والسجون ، والمتشردون الذين يحملون العذاب في كل مكان .. .

ان شخصية « دريس » هذه ، تمثل نموذجا للانسان المنفعل ، الضعيف الذي ينساق وراء رغباته دون رادع ، وشتان بنيه وبين النموذج الذي يصوره « محمد ديب » و « كاتب ياسين » عن امثاله من « المتشردين » نموذج الانسان الذي تستيقظ في نفسه ، مع الالم والجوع والاضطهاد ، ارادة لاتقهر ....

اما قصة « الربع الحلال » فهي تدور حول فكرة انسانية جميلة ، بائع صغير يشتري « المسكة » بالجملة من بائع غشاش ، ويرفض ان ياخذ ماليس من حقه ...

وقد كان من الممكن ان تعرض هذه الصورة في قصة انسانية بليغة ، لولا ان الكاتب اسهب في تحليل مشاعرها وتكرارها ، وافاض في حوارها ، واقحم فيها اشياء اخرى ، فافقدها ماكان يمكن ان تنطوي عليه من قوة وجمال .

« ١ ـ جاءت في القصة استطرادات لاعلاقة لها بالموضوع . مثال ذلك : اشترى شاب « مسكة » من البائع .. فاقحم الكاتب هذه الجملة : سيقدمها الى خطيبته ـ امرأتان لم تشتريا منه ، فاقحم الكاتب هذا التفسير المصطنع : « كانت الثخينة تقص خبر سلفتها التي اوغرت صدر حماتها » فجاة ينصرف الها ذهن القارىء الخ...

« ٢ ـ وردت في القصة عبارات فيها شيء من التحذلق لايتفق وساطة الصورة الانسانية البسيطة التي تعرض . مثال ذلك : « بان لعينيه الباص بلفظه المنحني هناك » ـ وعبر الباص « امتص حاجته من الوقوف » ـ فطفرت من تحت شاربيه بسمة طيبة .

« ٣ ـ بطل القصة هو البائع الصغير ولكن الكاتب لم يصفه ولم يقدم صورة حية له ، بل اقتصر على ذكر خواطره المتكررة ، في حين وصف الاشخاص الاخرين ـ وهم ثانويون ـ بتفاصيل دقيقة احيانا »

« ٤ ـ تغلب على القصة طابع التوجيه الظاهر من عنوانها « الربع الحلال » الى زمانها « الالم يزداد في عدد الطبعة » .. الخ

« ٥ ـ في القصة تكرار لاشياء كثيرة ، افقد القارىء كل متعة . وكان يمكن ان تكتب هذه القصة في عمود واحد من مجلة الاداب ، وتكون ابلغ تاثيرا ! ...

اما القصص الثلاث الاخرى فانها اشبه باليوميات الذاتية او الاعترافات وعلى الرغم من ازدحامها بالمواضيع والصور والافكار والمشاعر ، فانها تفتقر الى جميع مقومات القصة القصيرة : الخط الواحد الذي يتسلسل فيه الموضوع ، العبارة البسيطة الحية ، ترابط الصور الفنية ، الوضوح الذي يفرضه هذا اللون من الادب ... .الخ .

يشعر القارىء في كل من هذه القصص ان هناك « انا » مضخمة تفرض عبئها عليه ، في شحنة محمومة من الخواطر والصور لايعرف ماذا يريد الكاتب من نقلها الى الاخرين سوى ان يتحدث عن نفسه من خلال اشخاصه وحوادثه ، او ان يبث شكواه .

ففي قصة « الشمس باردة في خط الاستواء » مجموعة من الصور المبهمة تندرج تحت العنوان الشعري ، بل حشد من القصص والتجارب والاشخاص والمشاكل :

١ ـ شخص يختنق في مدينته المخيفة لان الحياة فيها مجرد ضياع كبير!

٢ ـ حكاية تحليلية عن شاب دلله ابوه في الصغر فنشأ جبانا . ولكن الاب في الوقت نفسه يشد على يده يوم الذهاب الى الجندية ويوصيه بان يعرف واجبه .

٣ ـ ينتقل من لعنة الجبن التي تنهال عليه في كل مكان الى البطولة . ويصبح بطلا بكلمة واحدة : « في صباح اليوم التالي كان خبر تسللي الى مراكز العدو ونسفي الجسر حديث الخطوط على طولها ».

٤ ـ موعظة اخلاقية عن الانهزامية .

٥ ـ نداء عاطفي حزين موجه الى المدينة .

اما الاشخاص الذين حشروا في صفحتين فهم : بطل القصة ، ابوه ، ابو ابراهيم ، البغي ثروة ، ام سهيله ، امه . سعيد . عايش . سمعان سلمان القصير ، الملازم عدنان ، العريف ناصر ، الرئيس شوكت ، سامي ميسر ... .الخ ...

ليت الكاتب يتوفر على دراسة تشيكوف و او . هنري ، و ساكي في شيء من التعمق والصبر !...

ولا تختلف قصة « النهر ميت » كثيرا عن سابقتها ، سوى ان الحشد فيها يبدو اكثر ازدحاما واضطرابا . انها اشبه بقائمة من المواضيع والخواطر لا رابط بينها الا ان بطل القصة يريد ان يطلع الناس من المواضيع على يأسه ومرارة تجاربه وقلقه ، ومقدرته على صياغة بعض العبارات المتحذلقة ..

في الاسطر الخمسة الاولى مثلا يضع اربعة مواضيع : صبية تموت من البؤس « اكل الذباب عينيها » . امومة بائسة تبكي . اخ لايكترث ويبتسم . اب قاس يتهم زوجته بالخيانة ..

أهي قصة اسرة شقية ؟ لا . ان الكاتب ينتقل بعد ذلك الى عشرات الصور الغامضة والمشاعر المختلفة . قبض على « البطل » ليلا مع مومس في بستان : يتفاخر مع صديق له في التفاهة . ـ انا عنكبوت ، ـ انا غبار ، ـ انا ذباب المدنية .. الخ . يساوم بغيا على جسدها . يحب فتاة ويفشل . يصق في وجهه مخلوق لايعرفه .. وغير ذلك ...

الى الكاتب : تريث كثيرا في نشر ما تكتب واقرأ اكثر ، ولا تنشر غسيلك امام الناس ..

اما في قصة « الحزن في كل مكان » ، فان الاسلوب الهادىء يوحي لاول وهلة بان هناك قصة بالمعنى الصحيح ، ولكن الاضطراب يطل منذ الفقرات الاولى ، الموضوع الرئيسي هو موت فتاة في التاسعة عشرة من عمرها ، قبل ان تتزوج ، ولذا فان الحزن في كل مكان يحسه بطل القصة ، اخوها . وقد كان يمكن ان تكون القصة مقطوعة جميلة من الرثاء العاطفي لولا ان الكاتب اراد لها ان تكون ذات حوادث واشخاص ، وصور تطل على الحزن من كل جانب وتفسد صورته الانسانية ، وتصرف الذهن عنه : عامل يستكتب الرسائل الغرامية الى فتاته دون ان يتلقى جوابا . صاحب دكان يبيع الحمص والفول اضافة الى الفواكه .... قصة كنزة صنعتها الام الحزينة لابنتها الراحلة .. الزوج المقبل زياد وباقة قميصه المنشاة ... .الخ .

غير ان في اسلوب هذه القصة سلاسة تتيح للكاتب ان يجيد كتابة القصة في المستقبل ، اذا اطال التدرب والقراءة ...

دمشق — صدقي اسماعيل